

أجواء لأندريه مورو

بقلم: الدكتور محمد غلاب

حياة أندريه مورو

وعمال مصنعهم ، وعددهم اذ ذاك أربعمئة وقد تركوا الالزاس حتى لا يصيروا ألمانين ثم أسسوا مصنعا في ايلبوف واستقروا بها فنجحوا نجاحا ساطعا في صناعة الجوخ الاسود . ويحدثنا أندريه مورو في مذكراته عن والده قائلا « ان والدى رجل نزيه برىء من النفعية ، شجاع محتاط كتوم متواضع وكان لديه أربعة أهواء فرنسا ، والالزاس ، ومصنعه وأسرته » .

في هذه البيئة التقليدية فاز مورو بطفولة سعيدة ، ولكنه تلقى تربية قاسية قصد اعداده لدوره المقبل كرئيس صناعى ، فنشأ في جو عمل يسوده احترام القانون والنظام . وقد أفاده كل ذلك فيما بعد بصورة قوية متينة في كتابة القسم الاجتماعى من رواياته . فمئذ أعوامه الأولى ترسم طبيعته المزدوجة في كل حركاته حيث يتكشف فيه الرجل الهائم بالدراسة والقراءة والأساطير والأحلام من جهة ، ورجل العمل المفتون بقوة الارادة وصلابة العزيمة من جهة أخرى .

وعندما ينشأ يدرس في روان يكون تلميذا

ان دراسة مشاهير الرجال وتربيتهم وطفولتهم وشبابهم قد صارت في هذا العصر أكثر منها في أى عصر آخر من أهم موضوعات البحوث التى تتناول أولئك العظماء لأنها تحدد جزءا أساسيا من تكوين طباعهم وأخلاقهم وأحاسيسهم وعبقرياتهم . واذا كان هذا واضحا بالنسبة الى العظماء المراد درسمهم ، وتحليل منتجاتهم فانه أكثر وضوحا بالنسبة الى أندريه مورو الذى يتعذر على الباحث أن يفهم منتجاته ، وبالتالي أن يقدرها حق قدرها . ومن ثم - ونحن نعرض لهذا الكاتب الذى هو من أبرز كتاب الصف الأول في فرنسا بل في العالم - فانه يجب علينا أن نلم ، ولو في ايجاز بحياة مؤلف رواية « أجواء » . واليك هذه الالمامة الموجزة :

ولد أندريه مورو - واسمه الحقيقى ايميل هيرووج - في ٢٦ يولية سنة ١٨٨٥ بايلبوف على مقربة من روان من أسرة ألزاسية . وسبب انتقالها أنه حين استولت ألمانيا على الالزاس في سنة ١٨٧١ ، ارتحل أبوه ايرنست هيرووج وأعمامه الخمسة

لامعا ينال الجوائز في أكثر المواضيع كالفلسفة والتاريخ واللغتين الاغريقية واللاتينية. وقد تتلمذ في الفلسفة على أستاذ شهير ممتاز يدعى « ألن » فكان تلميذا يكاد يبلغ حد الكمال وتأثر بهذا الأستاذ طول حياته ، وجعل يتحدث عنه في منتجاته وأحاديثه الخاصة حتى نقش اسمه في صحيفة الخلود . ومما تلقاه عنه حب الفلسفة والأدب مترابطين ، اذ أن « ألن » كان يقرر أن الشعراء والروائيين هم الأساتذة الحقيقيون للفلسفة ، اذ أنهم هم الذين يضعون الفلسفة موضع التماس من الوجود . ومعنى هذا بعبارة أكثر جلاء أن انتاج عظماء الأدباء يحتوى في كل خطوة من خطواته على فكر فلسفية عميقة تتصل بالعقول والنفوس أكثر من المبادئ الاصطلاحية الجافة . وهو لهذا ينبئنا بأنه تعلم من بالزاك ، وأستاندال ، وديكينس ، وتولستوى ، أكثر مما استفاد من الفلاسفة أنفسهم .. وفي هذا رد قاطع على أولئك المتفهبين أو أنصاف المتعلمين الذين يتخرسون بأن الأديب خيالى ، وأن الفيلسوف عقلى ، وهاتان جهتان متعارضتان . ولقد تعلم كذلك من أستاذه الشغف بالحقيقة والرغبة في فهم وجهات النظر المتعارضة ، ومحاولة التنسيق بينها . وتلقى عنه كذلك أهمية الأسلوب وهو الذى شجعه على أن يؤلف سلسلة « للمهزلة الانسانية » في القرن العشرين على طريقة بالزاك . وكانت تلك عظمى أمانيه .

غير أنه في سنة ١٩٠٣ وكان في الثامنة عشرة من عمره اضطر الى النزول عند ارادة والده ، فترك الدراسة وتخلّى عن رغبته النفسية في أن يصير أستاذا للفلسفة ، وتفرغ للإسهام مع والده في ادارة المصنع ، وظل مشتركا في ادارته بنجاح ساطع الى سنة ١٩١٤ . وقد سار في كل هذه الحقبة على

نسق ثابت لم يغيره قط ، وهو انشغاله ، نفسيا وعمليا بالمبادئ الانسانية عامة ، والاشتراكية خاصة ، وكان في جميع أوقاته ساهرا على مساعدة العمال والعناية بمصالحهم مع مراقبة حسن سير العمل وجودة الانتاج . وكان دائما يحاسب نفسه على العدالة ، فلم يسمح لنفسه ولا لغيره بأدنى تأمر على ظلم ما . ومن آيات هذه الاستقامة أنه في عهد ادارة عمه كان فى المصنع أربعمئة عامل ، وحين تركه هو الى معمران الحرب كان يشتدل على ألفى عامل . ونحن نجد هذا كله مرسوما في وضوح وكرم خلق في روايته الاجتماعية « بيرتاركنيه » .

وقبل اشتعال الحرب الأولى بأعوام ، يلتقى في جنيف بجانين دى سيمكيز ، وهى فتاة روسية ذات جمال أخاذ. وسرعان ما يجد فيها كل المخلوقات المثالية التى طالما كان يحلم بها في طفولته ومبدأ شبابه . وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٩١٢ يتزوج بها . وصورة حب هذه الفتاة المرسومة في رواية « أجواء » هى التى خلقت من هذه الرواية معجزة عاطفية . ولا يكاد أوار الحرب يشتعل حتى يقف تيار سعادته ، ولكنه يغير اتجاه حياته نحو ما يتوق اليه . ولما كان يعرف الانجليزية ، فانه يعين ترجمانا في الجيش البريطانى في فرنسا ، فيدرس محامده ومناقضه ثم يقيد بها في رواية عنوانها « صمت الكولونيل براميل » ولكن رؤساءه في الجيش لا يوافقون على نشر هذه الرواية الا بشرط تغيير اسمه حتى لا يفهم الضباط الانجليز المرسومون فيها أنهم هم المقصودون في ذلك التصوير لو أن المؤلف كتب على الرواية اسمه الحقيقى ، فقبل هذا التغيير ، ووضع على الرواية اسم « أندريه موروا » ف نشرت في ١٩١٧ ونجحت في فرنسا وانجلترا وأمريكا نجاحا متلائما جعله يعرض بالنواجد على اسمه الجديد ،

ذكية مثقفة ولما كانت تحب موروا حبا ثابتا أميناً، فانها تصير سكرتيرته والمسهمة الوحيدة في أعماله الأدبية فلا تفارقه ألبتة وفي تصوير حياتها معه يقول موروا فيما بعد « ان الزواج السعيد هو محادثة طويلة تبدو دائما مفرطة في الایجاز » .

ومما يسترعى الانتباه في هذا الشأن أن سيمون تعمل على اتساع الصلات الأدبية لزوجها وتسهل عليه أعماله ، فتضاعف نشاطه وتجعله يستطيع السير في عدة فروع من الإنتاج يعتبر كل واحد منها في الطراز الأول كالروايات والقصص ، وحياة العظماء ، والتاريخ ، والمحاولات ، وكتب الأطفال . ولا تمضي سنة واحدة على اشتعال الحرب العالمية الثانية دون أن يظهر له كتاب أو عدة كتب . وسنشير الى أهم هذه المؤلفات فيما بعد . وفي سنة ١٩٢٧ يرتحل الى أمريكا لالقاء بعض المحاضرات هناك . وفيها يستقبل استقبالاً حافلاً يوازي في الحماسة استقباله في إنجلترا . وفي سنة ١٩٣٠ يعود مرة أخرى الى أمريكا ، وعلى أثر هذه العودة تمنحه عدة جامعات أمريكية وإنجليزية ودكتوراه الشرف . وفي سنة ١٩٣٧ ينال وسام الايليجيون دونور من طبقة الكموندور . وفي ٢٣ يونيو سنة ١٩٣٨ ينتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي . وهنا يصل الى قمة المجد الأدبي .

وعندما يحدث لهيب الحرب الثانية سنة ١٩٣٩ يكون قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ولا يمنعه ذلك من أن يلتحق بالجيش ويطلب إرساله الى الجبهة في دوره القديم الذي كان يشغله في الحرب الأولى ، وهو دور الترجمان في الجيش الانجليزي في فرنسا . وعندما تقع الهزيمة في فرنسا سنة ١٩٤٠ يرتحل بعد لأي الى إنجلترا ثم الى أمريكا دون معرفة أى شيء عن مصير أسرته ، ولكن سيمون

ويعتزم ألا يتخلى عنه طول حياته . ولما كان هذا الفوز قد حفز همته على الاستمرار في الكتابة ، فانه يسارع الى تأليف رواية أخرى عنوانها « لا ملك ولا حيوان » يعالج فيها المعارك التي كانت تحدث بين الاشتراكية والرأسمالية . وفي ١٩٢٣ ينشر الحلقة الأولى من سلسلة عظماء الرجال التي حققت له شهرة عظيمة .

غير أن الزمن لا يجود بالهناء الدائم ، اذ لا تلبث سنة ١٩٢٤ أن تحل حتى تحمل اليه معها أكبر آلامها وأحزانها ، وهو موت زوجته جانين التي يقول عنها في مذكراته « لقد عثرت على الملكة في هذا العالم الواسع فاخترتها واستوليت عليها ثم فقدت » وسنرى في رواية « أجواء » اسطورة طفولة موروا عن « الملكة » .

وفي تلك السنة عينها رغم أحزانه القاسية — ينشر أولى محاولاته وأشهرها . وعنوانها « محاوراة حول اصدار الأوامر » يجابه فيها وجهتي نظر المواطنين الذين يقفون ضد السلطة الحكومية والضباط الخاضعين للنظام وهو يبدو في تلك المحاوراة مع الضباط بكل قلبه . نعم انه يكره الطغيان ، ولكنه يحب السلطة العادلة الحازمة التي تقضى على الفوضى التي تمتعض منها طبيعته أشد ما يكون الانتعاض .

ومهما يكن من شيء فان موروا كان في ذلك الحين قد صار كاتباً أكثر منه رجلاً صناعياً ، اذ أن حداده على زوجته قد انتهى بأن فصله تماماً عن مهنته الأولى ولم يعد الا كاتباً جعل يتدرج في مواضع الاعجاب من كثير الى أكثر . وفي سبتمبر سنة ١٩٢٦ يتزوج من السيدة سيمون دي كيافيه ، وهي ابنة أحد أعضاء المجمع اللغوي وحفيدة السيدة دي كيافيه ملهمة أناطول فرانس التي طالما تحدث عنها في مؤلفاته . وكانت هذه الزوجة شابة فاتنة ساحرة

الطباع والأخلاق وتعالج الوراثة المعنوية أو الأدبية،
وتعتبر محاولة من محاولات التنسيق أو التقريب
بين الأجيال ، لكى يتيسر فهم بعضهم بعضا .

٤ - غريزة السعادة (١٩٣٤) وهى رواية
عميقة تدعو الى الرزاة والتعقل والاحتياط ، وتعالج
مهمة الصمت حين يتعلق الأمر بالحياة العاطفية . وقد
صور المؤلف فيها الفوارق التى تطبع كل جيل
بطابعه الخاص الذى يميزه عن سابقه ولاحقه .
وهذه الروايات الأربع تؤلف بداية « المهزلة
الانسانية » فى القرن العشرين التى كان يؤمل أن
ينشئها على غرار بالزاك .
حياة مشاهير الرجال :

١ - بيرون (١٩٣٠) - ٢ المارشال ليوتيه
(١٩٣١) - ٣ تورجينيف (١٩٣١) - ٤ فولتير
(١٩٣٣) وقد ترجمناه الى اللغة العربية باتفاق مع
مشروع الألف كتاب - ٥ - ادوار السابع وزمانه
(١٩٣٧) - ٦ شاتوبريان (١٩٣٨) - ٧ جورج
صاند (١٩٥٢) - ٨ فيكتور هوجو (١٩٥٤)
وغير ذلك .

التاريخ :

١ - تاريخ انجلترا (١٩٣٧) - ٢ تاريخ
الولايات المتحدة (١٩٤٣) - ٣ تاريخ فرنسا
(١٩٤٧) .

أسلوبه

يعتقد موروا أن اندور الأساسى للأسلوب
هو التعبير بلا اتلاف ولا تشويه عن المعنى المحدد
للفكر المراد شرحها . ومهمته هى الاستعداد دائما
لخدمة فكرة الكاتب . ومن أجل ذلك يمتاز أسلوبه
بالوضوح والصفاء والتحديد والتأدب والذوق
والرشاقة البسيطة التى لا تعمل فيها ولا اصطناع .
وهو يختار الكلمات ويجمعها للعقل أكثر منها

لحسن الحظ تلحق به بعد قليل، وتطمئنه على ابنه
وابنته . وفى السنتين التاليتين لهذه الهجرة يلقي
كثيرا من المحاضرات فى أمريكا ويؤلف بعض الكتب .
وفى سنة ١٩٤٣ يلتحق من جديد بالجيش حين ينزل
الامريكيون فى أفريقيا الشمالية ويكون فى طليعة
الفرنسيين العائدين الى فرنسا ، ثم يكلف بمهمة
اقتصادية فى أمريكا ، فيذهب اليها ثم يعود الى
باريس فى سنة ١٩٤٦ ويستقر بها نهائيا ، ولكنه
يجد الألمان قد نهبوا مكتبته الفخمة القيمة . ومنذ
ذلك العهد يظل عاكفا على الكتابة والتأليف والقاء
المحاضرات بهيئة خصبة لا تعرف الكلل ولا تألف
الملل . أطل الله حياته وزاد فى اخصابها .

منتجاته

الروايات :

من الروايات التى ألفها موروا غير ما أشرنا
اليه آنفا ما يلى :

١ - سيرناركييه (١٩٣٦) وهى رواية
اجتماعية رسم فيها عالم العمل بكل مشاكله التى
تنشأ بين صاحب المصنع وعماله . وتعتبر هذه
الرواية مستندا ذا قيمة ، بل قد استخدمها اساتذة
علم الاجتماع فى الجماعات الأمريكية وليس عسيرا
على قارئها أن يجد موروا مثالا فى شخصية بيرنار
كينييه بطلها الأساسى اذ لا نكاد نتصفحها حتى نرى
بطلها شابا ذا ذوق دقيق ، واحساس مرهف ، ولكنه
يفهم الواجب الذى رسمته له التقاليد الأسرية
فيضحي بكل مرتخص وغال فى سبيل البقاء فى
المصنع ومزاولة ادارته .

٢ - أجواء (١٩٢٨) وقد ظفرت بأروع نجاح
وخلود ، وهى روايتنا التى نحن الآن بصدد
تلخيصها وتحليلها وترجمة نماذج منها .

٣ - دائرة الأسرة (١٩٣٢) وهى رواية ترسم

للأذن . ومن ثم فانه ينبذ كل ماليس ضروريا ، وليس للحشو موضع في مؤلفاته ، وهو يقول ان الأسلوب هو فن يشغل قبل كل شيء بالنقاء الأدبي ، وهو ينتج للقارئ سكية مريحة وسحرا هادئا متحفظا .

ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن روايات موروا خالية خلوا تماما من الأوصاف الغريزية التى تكشف العلائق الجنسية بين المحبين . وذلك مقصود له ، لأنه يرى أن اللوحات الشهوانية ، والجمل الفظة هى وسيلة وضيعة فى الأدب . ولهذا لم يلجأ إليها كبار الروائيين الا فى حالات اضطرارية نادرة . وقد كان هو من أشياع المدرسة العفيفة النظيفة « كبازاك ، واستاندال ، ونورجينييف » الذين لا يرسمون صور الحب المادية ، ولكنهم يلجئون إليها على بعد ، أو بعبارة أدق : كانوا يهضون مواقف الغرام ويمتصونها ثم يقدمون خلاصتها صافية وينبذون الضار أو الفظ منها رغم أنهم كانوا أعظم من تناولوا مواقف الحب القاهر القاسى .

لمحة عن رواية « أجواء »

ان رواية أجواء هى أكثر روايات موروا ظفرا بالنجاح . وقد ظهرت فى ١٩٢٨ وهى رواية نفسية عميقة ، وموضوعها هو تصوير التباين الصارخ فى الحدة العاطفية بين المحبين . وقد عرفت كيف تمنح الشباب والجدة لهذا الموضوع القديم قدم البشرية ، وتستخلص منه آلاما جديدة موصوفة بعبارات لم يستخدمها مؤلف قبله . وهى فى الوقت ذاته محاولة للتنسيق بين وجهات النظر للرجل والمرأة .

ويقص علينا موروا كيف نشأت لديه فكرة هذه الرواية ، ولماذا صاغها فى صورة خاصة غير مألوفا من قبل . ومأتى ذلك أن احدى المجلات

طلبت اليه أن يكتب لها قصة فصصم على صياغة حادثة وقعت لأحد أصدقائه فى مراكز وهى موجز لعلائق ذلك الصديق فى تلك الاصقاع مع ثلاث نساء وللآلام التى سببها لهن بضعفه . ولما كانت هذه القصة تحتوى على موضوع لرواية فاتنة ، فان موروا قد اتخذها أساسا لروايته هذه مع استبعاد المرأة الثالثة وتغيير الظروف والمكان والزمان . وقد كتبها فى سهولة ، لأنها تشبه - فى بعض جوانبها - حياته الخاصة ، وبالتالي كان يستطيع أن يغذى شخصياتها الخيالية بانفعالات مرت به ، بل كانت لا تزال جديدة تهز كيانه .

ومما يسترعى الانتباه هنا أن القسم الأول الذى قصه المؤلف بطريقة مباشرة كان يسيرا هينا ، لأن بطله كان يقول فيه « اننى محب ولكنى لست محبوبا » أما فى القسم الثانى ، فان هذا البطل نفسه كان يقول « اننى محبوب ولكنى لست محبا » وهو فقدان للدق بصورة لا تحتل ولهذا جاء ذلك القسم على لسان الزوجة الثانية للبطل .

ملخصها

القسم الأول - أوديل :

تتلخص هذه الرواية فى أن فيليب مارسينا بطلها الأساسى هو ابن أحد أصحاب مصانع الورق فى إقليم ليسوزان بالجنوب الغربى فى فرنسا . وقد تلقى منذ نعومة أظفاره تربية تقليدية قاسية بقصد اعداده لدوره المقبل ، وهو رئاسة المصنع الأسرى وهنا يصور لنا المؤلف طفولته الخاصة المحوطة بحاجز متين مكون من الحيطة والاحترام ليفصل بين الأطفال ووالديهم ، وهى طفولة بلا تدليل ولا لذائذ ، بل ان التماثل بين أمسها ويومها لا يكاد ينقطع الا بقليل من اللعب والتلهى فى أيام الآحاد مع ابنة عمه رينيه ، وبلا بالمطالعة التى كان يأوى

اليها في أغلب الأوقات الممكنة لينقذ بها نفسه من الملل ولكن هذه المطالعات كان لها عليه فضل توجيه خلقه وارهاف أحاسيسه ، وقد نمت فيه الحاجة الى الوفاء الحاد والى جانب ذلك كله قد تكونت في خياله صورة «فتاة جميلة فاتنة مرنة ماهرة» نشأت من أسطورة ملكة في احدى قصص الأطفال ، ومن هيلينيه لهوميروس ، ومن ايرين بطلة رواية «دخان» لتوجينيف ، وناتاشا بطلة رواية «الحرب والسلام» لتولستوى ، وكان في طفولته يدعو هذه المحبوبة الخيالية « بالفارسة » ثم أخلص لها اخلاصا تاما .

ومما يلفت النظر هنا أن هذا التوجيه الرفيع يشرح في وضوح تنقيبه النزيه البريء التمس عن الحب الكامل وانهاء هذا التنقيب الى الاصطدام المأساوى بالحقيقة الواقعية .

غير أنه بقدر ما كان فيليب يكبر وتتقدم به السن كان يبرأ من هذه الاحلام الرومانسية . ففي الليسيه كان يبدو مع رفاقه شابا يلوح على مظهره وأحداثه الاستهتار والمجون . وأكثر من ذلك أنه كان يتحدث عن نفسه ويروى أنه كان يسلك للاستيلاء على النساء الخفيفات منهجاً ينجح دائماً في جعله يمتلئ بالغرور واليأس في الوقت ذاته . وسبب هذا اليأس أنه كان يحس أن هذه الخطة تبتعد عن الحب المثالي الذي تغلغل الى أعماق نفسه في شبابه الأول .

وأياً ما كان فإنه يظل يتابع في باريس دراسته ومطالعاته ويساعد والده في مصنعه . وكان في ذلك الحين يرى والديه سعيدين في حياتهما الزوجية فيتمنى في حرارة أن يلتقي بامرأة تشبه «فارسة أحلامه» فيحيا معها آميناً سعيداً . وبينما هو يسبح في أخیلته على هذا النحو يصاب بنزلة شعبية تدفع

الطبيب الى نصح أبويه بارساله الى إيطاليا ردحا من الزمن ، فيرتحل الى تلك الأصقاع . وهناك في فلورنسا يلتقى في أحد الفنادق بفتاة جميلة جمالا شفافا ملائكيا ، وكانت جالسة الى المائدة المجاورة له ترافقها والدته لا تزال عليها علائم الشباب ، ورجل متقدم في السن . وفي اليوم التالي أثناء زيارة فيليب لأحد الأساتذة الفلورانسيين يلتقى في منزله من جديد بتلك الفتاة فيهره جمالها الفوق الطبيعي ، ويحوئه الى شخص حي ، ولا تلبث نظراتهما أن تلتقى مشحونة بقوة غير معروفة سرعان ما يتولد منها حب عظيم . وفي حادثة ضائقتهم ، وبين خمائل الورد يبدأ الشابان محادثتهما الأولى التي لا تلبث أن تتحول الى مسارة تتناول حياتهما الخاصتين فتنبئه هي بأنها تدعى أوديل مالهيه ، وأن والدها مهندس معماري ، وأنها تحبه كثيراً ، وأن عمله يضطره الى الإقامة في باريس ، وأنها متألمة من ملازمة هذا القائد الايطالي المسن لوالدتها ، وهو أحد المعجبين بها . وكذلك فيليب يحدثها عن «فارسة أحلامه» وعن عدم قدرته على أن يذوق أى طعم للحياة مالم تسنده عاطفة عنيفة وعميقة . واذ ذاك يصمم الشابان على أن يلتقيا كلما سحبت لهما الفرصة . وهنا يتبدى سر الحب يعمل عمله فيتنزهان كل يوم ويزوران الكنائس والمتاحف والمتاجر ، لأن أوديل كان لديها شيء من الطيش والخفة اللذين طالما تبرم بهما فيليب عند صديقاته السابقات ، ولكن هذه التي يحبها لا يمل شيئاً منها ، بل انه - على الضد من ذلك - كان يفتن بما يستكشفه فيها مما ينقص بيئته المعتادة وهو « تذوق الحياة » اذ أنها هي التي كشفت له عن العالم المحس الذي حجبته عنه تربيته وميله الى الأجلام فحين مزقت النقاب القائم عن عينيه سحبت

الى عالم الألوان والضوضاء ، ولا غرو فكل ساعة من ساعات هذه الحقبة المسحورة كانت تطبع فيليب بعلامة أبدية . وكان كل ما يحوطه ينطق بسعادة حب أوديل وحماية جمالها الكامل الرقيق من عدو غير مرئى .

وعندما آن أوان عودة فيليب الى باريس كان قد صار خطيبا لأوديل ، وجعل يفكر فى قلق كيف أنه سيفتح والديه فى هذا المشروع وماذا عسى أن تتكشف الاستعلامات التى تتطلبها أسرته عن أسرة أوديل التى لاتعرف عنها شيئا ذابال ؟ ولما كانت تقاليد أسرة مارسينا تقتضى ألا ينقل اليها مثل هذا المشروع نفس الشخص الذى يعنيه الأمر مباشرة ، بل عن طريق الوساطة وبكل احتياط ، فقد طلب الى خالته كورا التى تعيش فى باريس ، وكانت كاتمة سره وموضع ثقته ، أن تتحدث فى شأن خطبته مع والده ، وعندما تسمع كورا هذا النبأ تنزعج رغم خبرتها ، لأنها تتنبأ بكثير من العقبات والموانع ، فوالد أوديل ذومواهب لا يستهان بها ، ولكن اهماله يجلب اليه الخسائر ، ووالدتها تزوجت ثلاث مرات ، وهى تعتبر طائشة ، غير أنه يلح على خالته فينتهى بها الأمر الى أن تفتح والديه فى هذه الخطبة . وهنا تنشأ شكوك ومناقشات . وأخيرا يقوم أبو فيليب بزيارة رسمية لأسرة أوديل ، واذ تقع نظرات والده على هذه الفتاة يقول له « انى لا أعتقد أنك محق ولكنى أفهمك وأعذرک » أما والدته فهى تقول انها يقينا هى جميلة ولكنها غريبة الأطوار وهى تنطق بكلمات شاذة ، فينبغى أن تتغير .

ولاشك أن هذه العبارات الأخيرة تحتوى على عناصر الفاجعة المقبلة ، لأن أوديل هى من النساء اللواتى لا يتغيرن ، ومهما يكن من شيء فان

الشهرين الأولين من الزواج يمران فى سعادة تامة ، اذ يقضيهما العروسان فى انجلترا واسكوتلاندا . ومن الكلمات التى تعبر عن هذه السعادة قول فيليب « لقد تعلمت أن أعرف أوديل مجهولة أجل من أوديل فلورانس فالنظر اليها وهى تحيا ضرب من السحر ، اذ هى تمس الحياة مس الزهر وكأنها روح أكثر منها امرأة وعندما تسير على شاطئ التاميز يخیل الى رأيها أن خطواتها الخفيفة نوع من الرقص » .

وحين عادا الى باريس كانا يشتهيان أن يعيشا منفردين ، ولكن هذا لم يكن ممكنا لأنه متعارض مع سنة الحياة ومطالب العمل ، وعندما تسحبها الحياة الاجتماعية مع تيارها القاسى تتولد التشققات الأولى فى بلور جبهما الشفاف . فمما لا شك فيه أن فيليب قد أصبح فريسة للقلق يعضه بأنيابه الحادة كلما رأى أوديل تروح وتغدو فى أسرتها بين أصدقاء أخوتها من الشبان . نعم انها كانت وديعة ولكنها كانت تخلق حولها جوا من الأسرار غير قابل للشرح بل داعيا الى الاضطراب وسرعان ما تنبأت أحاسيس فيليب الدقيقة بخطر يلوح على بعد لاسيما أن طابع حبه المتشدد لا يستطيع أن يحتمل أن يكون لدى أوديل أفكار تظل أجنبية عنه . وعندما يتبين فى نفسه أنه قد بدأ يغار فانه يتألم كثيرا ويأخذ فى تحليل حياتهما الجديدة فى شيء من بعد النظر يتضح له جيدا أن أوديل الحقيقية ليست هى أوديل التى أحبها فى فلورنسا ، لقد حسب أنه التقى « بفارسة أحلامه » ولكنه كان مخدوعا أى تبين أن أوديل ليست الهة من العاج واشعة القمر ، وانما هى امرأة أنيقة خفيفة طائشة ممعنة فى التدلل ، شرهة فى تلقى الاعجاب . وفوق ذلك فهى تحب المراقص والمسارح والكباريات الليلية والحفلات

الشعبية . وبالأجمال تعشق جميع الملاحى التى لاتروق فيليب الجدى . وهو لهذا لم يكن يطمئن عليها ، بل لايهدأ الا اذا عرف أنها محصورة فى تلك الدائرة الضيقة التى ندعى بالمنزل . ومن ثم فانه كان يشعر بالسعادة تملأ نفسه كلما ألت بها وعكة تلجئها الى ملازمة الفراش بضعة أيام ولم يكن ذلك بغضا فيها ولكن حرصا عليها من الاختلاط . وآية ذلك أنه كان يمضى تلك الأمسيات على مقعد الى جانب سريرها فيتحدثان طويلا أو يقرأ لها . ولقد كانت هى فى تلك الليالى شبيهة حقا بأسطورة أوديل كما صنعها هو فى خياله . وكلما كانت ضعيفة ورقيقة كانت طوع ارادته ، ولكنها عندما كانت تصير أكثر قوة وتستطيع الخروج ، فانه يلقي أمامه أوديل الغامضة التى تؤله . ولم يحدث لها قط أن قصت من نفسها على فيليب مايقع لها فى غيبته كما تفعل النساء الشفافات اللواتى لا يتعمدن الاخفاء واذاوجه اليها أسئلة فانها تجيب بضع كلمات غامضة دائما ، ولم يكن ماتقوله له يسمح له البتة بتمثل الواقع على طريقة مرضية .

ولما كانت هذه الخطة تعذب فيليب وتنغص عليه حياته فانه طالما كان يقفها موقف التناقض مع نفسها واذا ذالك تحول الحديث الى مزاح ، أو تختفى بضعف ذاكرتها ، أو تتحصن بحصن نزقها الفطرى البرىء ، أو تدافع عن نفسها بعبارات جافة ، أو تظهر فى حركة من حركات الغضب ، ثم لاتبث أن تعود الى مظاهر الطفولة الوديدة الساحرة . وهنا يصمم فيليب على الصمت أو على الظهور فى صورة المطمئن الواثق ، لأن حبه — وان كان قد اختلف عن ذى قبل — لايزال قويا . وعلى أمل ابقائها فى المنزل كان يدعو فى أكثر الأحيان ميرا الشابة صديقته اليها ، وكان يسعد بثرثرتهما التى لاتكاد

تنتهى بسبب السرور الذى تجلبه الى أوديل . غير أن هذه الأخيرة لاتبث أن تغير رأيها فى فيليب فتحكم بأنه أنانى ومضجر وغارق فى مهنته وأعماله ، وأكثر من ذلك أن أسرتهما كانتا سبيا فى كثير من مناقشاتهما لأن أوديل لم يكن لديها أية جاذبية لأسرة مارسينا التى تكره منها الروح البورجوازية التقليدية . وهو كذلك لم يكن ممتنا من وسط أسرة أوديل المفرط فى الحرية والذى تسوده الفوضى التى تفزع كل أسرة مارسينا ، ولكن على الرغم من جميع مسوغات الآلام التى كانت تنمو باطراد فان جمال أوديل كان لايزال كافيا لتحقيق السعادة لدى فيليب لأنها كانت — الى جانب حسنهما الفاتن ورشاقتها الأخاذة — كان لديها مايتمكن أن يسمى بملكة النسيان التى تجعلها شبيهة بالطفلة البريئة فكانت تنسى فى الغد المناظر الثقاسية التى مرت بالأمس وتسير — على حد تعبير فيليب — مشعة تبدد الظلال وكان لديها سطوع ذو ابيضاض منير كأنها ماسة جميلة تتلألأ فى نور القمر . بيد أن غيرة بدأت غامضة سدلت عليها الكبرياء أول الأمر أستار النسيان ، ثم ضاعف ذلك الغموض حياء أدبى غرسته فى نفسه التربية الرفيعة واسكنها لم تلبث أن استقرت فى قلب فيليب . وقد أسهمت فى اماطة اللثام عن هذه الغيرة وابرازها الى حيز الوجود العملى امرأتان : احدهما ابنة عمه وصديقة طفولته «رينيه مارسينا» التى صارت شابة متعلمة متزنة ، وهى تحبه حبا خفيا وقد أتت لزيارتها ثم خرجت . وهنا ندع فيليب يتحدث فيقول : « وعند انصرافها ودعتها الى الباب الخارجى فقالت لى فى اعجاب مخلص «كم زوجتك جميلة ! » ثم نظرت الى فى حزن قائلة « أنت سعيد ؟ » وقد نطقت بهذه العبارة فى نبرات فهمت منها أنها لاتتصور أنتى سعيد .

فتحتج على ذلك وتجزم بأن الأمر لا يتعلق الا بتضييع الوقت والتلهى . وحينما يطلب اليها أن تغير خطتها تجيبه بأنها لا تريد الا ما تستطيع انما هو الذى يجب أن يغير طبعه المتجمد ، فلا يلح ولا يتشبث أكثر من ذلك لأنه يعرف فى أعماق نفسه أن أوديل لو لم تكن كما هى لنقص حبه اياها .

ولقد كانت تلك اللحظة الدائمة من جانب فيليب تسمح له بأن يعرف أولئك الذين يروقون زوجته . وفى احدى الأمسيات التقى فيليب وأوديل فى عشاء عند خالته كورا بفرائسواى كروزان وهو ضابط من ضباط البحرية الساطعين وله شهرة فائقة فى اغواء النساء ، وكان قد وصل حديثا من الشرق الأقصى فجعل يروى أحداثه التى شاهدها فى تلك الأصقاع ، فكان بذلك محط الأنظار من جميع المدعويين . ولم يكد فيليب يشاهد هذا المنظر حتى أحس بالخطر الداهم ، ولكنه لم يستطع أن يتجنبه اذ لا يكاد الالتقاء الثانى يحدث حتى كانت أوديل وفرنسوا قد أخذتا يتصلان ويرتبط كل منهما بالآخر ارتباط الجاذبية المنتهية الى الغرام . وقد أدرك فيليب بيقظته العادية أنهما على الأقل يلتقيان سرا ، ولكنه لم يستطع أن يفتحها فى ذلك لأنه لم يكن يتمنى أن يقطع صلته بها . وعندما حل الصيف غيرت أوديل برنامج تصييفها فجأة ، فبعد أن كانت متفقة على امضاء يولية عند الخالة كورا الى أن يحضر اليها فيليب تصمم على الذهاب وحدها الى بريطانيا الفرنسية ، ولا تزال تلح على هذه الرغبة حتى يخضع فيليب وينزل عند ارادتها ، فترحل وتتركه تعا . وفى الأسبوع التالى لرحيل أوديل تمر ميزا بباريس فتحدث فيليب تليفونيا وتدعوه لزيارتها . ولما كانت لا تزال تحبه فانها تنتهر فرصة أحزانه وآلامه وتسلب عليه اغراءها حتى تغويه وتنال منه ماتبعيه

والأخرى «ميزا» صدفة أوديل التى كانت وحدها ذات مساء مع فيليب ، فلمحت أمامه بأن أوديل غير جديرة بالحب الذى يكنه لها . ولكنها لما أظهر لها أنه حنق عليها بسبب هذا الايقاع بينهما ، ابتعدت عنهما ولم تلبث أن أعلنت اليهما زواجهما وارتحالها الى الأقاليم .

ولما حيل بين ميزا وأوديل ، فان هذه الأخيرة لم تلبث أن عادت الى صحبة المعجبين بها من أصدقاء أخوتها . بينما أن فيليب الذى لم يكن هذا الوسط يروقه قد رفض أن يجتمع معهم . وهنا أخذت حياتهما تتتابع بالكثير من الأحداث ، وطفقت الرواية تصور تنافر عواطفهما ، وترسم تغير طباعهما التى كانت تزيد على التوالى ، ففيليب صار حساسا بطريقة غير قابلة للتصديق بازاء تحليل عبارات أوديل وفحص نظراتها ومراقبة حركاتها ، وجعل يقيد عليها أدق الفكر التى تصرح بها أو تبدو على وجهها لكى يعزوها الى خصم غير معروف . وفوق ذلك فقد أخذ يصارحها بأفكاره عنها حتى أقساها وأشدّها تجريحا . ولكنها كانت تستمع الى ذلك فى تسامح تارة ، وفى غضب تارة أخرى وأحيانا كان ذلك يدخل على قلبها من السرور لشعورها بأنها أصبحت موضوعا لكثير من العناية والرقابة ولم يكتف فيليب بهذا بل جعل يسرد لها عيوب أخلاقها ، فتستمع اليه باسمة وتجيبه قائلة : « مسكين أنت يا فيليب كم من العذاب تلاقيه بسبب فتاة صغيرة ضئيلة خبيثة غبية متكبرة لعوب لأنى مشتملة على كل هذا . أليس كذلك » .

وفى الحق انه كان فى ذلك العصر يأخذ على أوديل دلالات واغراء عمليين ، وعلى صورة لم يكن بها حاجة اليها وكان فى نقده اياها يذكر لها أسماء من المعجبين بها الذين تحاول اجتذابهم بدلالها

مسرورة اذ أفكر في أنك ستأسف على عندما لا
أكون هنا .

— ولكنك ستكونين هنا دائما يا أوديل .
— انك تعرف جيدا أنه لا .

ولكن كانت هناك شخصية أخرى تتابع بيقظة
تامة مايجرى بينهما وهى والدة فيليب التى تشمل
الأخلاق الضيقة والتى ستحدث الى ابنها فى لهجة
حازمة لا عيب فيها ولا مأخذ عليها حين يصرح لها
بأن ميزا لا تجيء عندهم لأنها أساءت السلوك مع
أوديل . وعلى أثر هذه العبارة تقول والدته فى
صوت مفعم بالأسى والأسف : « هل أنت متأكد
من أن أوديل ليست هى التى أساءت السلوك بازاء
ميزا ؟ استمع الى يافيليب نعم أنا لا أريد أن أتدخل
بينك وبين زوجتك ، ولكن ينبغى أن أقول لك على
الأقل مرة واحدة : ان جميع الناس يلومونك حتى
والدك لأنك ضعيف معها أكثر من المألوف . أنت
تعرف أنتى أنزعج من الشائعات وأريد أن أعتقد
أن كل ما يروى زائف ولكن اذا كان ذلك زائفا
فانه يجب عليك أن تحصل من أوديل على وعد بأن
تحيا بطريقة تمنع الناس من أن يقولوا
شيئا .

وحين يرجع الى باريس يستولى عليه القلق
ويلحقه الغم ويظهر ظل فرانسوا من جديد فى
حياتها ويمثل خياله أمام عينيه على مر اللحظات
ولكى تضع هى حدا لهذا التردد وتلك اللولية
المتعبة ، فانها تتخذ تصميمًا حازما فى موقفها مع
زوجها وتعزى الالتقاء بفرانسوا أثناء مروره بباريس
متجها الى سفينته . وكانت فى ذلك اليوم وهى
خارجة لمقابلة عشيقها ، يلوح عليها مظهر العزيمة
الفولاذية التى لاتعرف الشفقة والتى شعر بها آنفا
عندما استقلت القطار الى بريطانيا الفرنسية ، تلك

غير أنها لاتكاد نظفر منه بهذه الرغبة حتى تحس
بأنه يندم على فعلته ، وأن تذكارة أوديل لا يفارقه
فتستولى عليها الحفيظة وتنبئه بأن أوديل عشيقة
لفرنسوا دى كروزان منذ ستة أشهر ، وأنها هى
شخصيا التى كانت توصل اليهما الرسائل الغرامية
ولاتكاد تروى له هذه القصة حتى يخيب أملها حين
تتبين أنه يشبه شخصا مسحورا ، وأنه حائق عليها
لايقاعها أكثر من حنقه على أوديل لخياستها . وهكذا
كانت حادثتها ذات ليل من غير صباح ، وأن صلتها
هذه الآثمة كانت أقصر من أعمار الزهور .

وأخيرا تعود أوديل فينتظرها على المحطة أكثر
شقاء من ذى قبل لأنه كان لا يدري ما اذا كان ينبغى
أن يتجنب كل مناقشة ايضاحية معها لئلا يحتفظ
بها ولو ردحا من الزمن ارضاء لحبه القاهر ،
أو اذا كان يبرهن على قوة ارادته فينفصل عنها لأنه
كان يملكها ويعبدها فى الوقت ذاته اذا أمكن
هذا التعبير . فهو أمام مرحها وتطرفها عند وصولها
كان يخيل اليه أنها بريئة وجانية معا . وقد أثرت
هذه الرقة فيه من جانبها فأخرت وقوع الكارثة ،
ولكن كان يبدو عليهما أنهما يعيشان فوق بركان ،
اذ لم يلبث أن يصارحها بما نقلته اليه ميزا ولكنهما
— رغم هذا كله — يرتحلان الى قصر الأسرة
بالأقاليم ليقضيا بعض الوقت منفردين . وهناك
يتذوق بضعة أيام حلوة فى العزلة والبعد عن كل
أنباء خصومه السعداء ، وكان لا يزال يخدع
نفسه بالأمل فى العودة الى امتلاك قلبها ولو أنها
هى كانت تردده الى الحقيقة الواقعية فى أكثر
الأحايين فتقول له مثلا : « أترى يا فيليب خطأك
الأكبر ؟ انك تطلب الى النساء أكثر من الممكن
وتنتظر منهن فوق ما فى طاقتهن فتكون النتيجة
أنهن لا يستطعن ذاك .. ولكننى على أية حالة

تبدون ثناياه شخصية جديدة تختلف كل الاختلاف عن سابقتها ، وهى شخصية ايزايل التى تبثنا فى يومياتها أن فيليب قد توفى منذ ثلاثة أشهر ، وأنها كانت زوجته الثانية . ولما كانت تحب ذلك الزوج الراحل حبا شديدا ، فقد أرادت أن تسجل ذكريات روايتهما كما سجل هو حياته الأولى مع أوديل فى قصة بحث بها إليها قبل زواجهما وهى التى تؤلف القسم الأول من هذه الرواية حتى لا يخفى عليها شيئا من ماضيه . ولقد أثبتت قصتها جميع الوقائع والأحداث والعواطف على حقيقتها بفضل ملاحظاتها أولا ، واعتمادها على رسائل ومذكرات كتبها فيليب ثانيا .

بدأت ايزايل بتصوير السنين الأولى من حياتها فشرحت فى جانب كبير منها طباعها المعتدلة ، وأخلاقها المتزنة التى تحاول دائما أن تبدو منمجة أو باهتة على أقل تقدير بدلا من أن تتظاهر أو أن تفرض نفسها ، فحدثتنا أن طفولتها كانت محرومة من الهناء ، وأن والدها كان خيرا ، ولكنها لم تكن تراه الا قليلا ، لأنه كان منهمكا فى أعماله السياسية بوزارة الخارجية . أما والدتها فهى لاتعرف فى التربية سوى مبدأ واحد وهو اقناع ابنتها بأنها بلا ذكاء ولا جمال ، ولا ثروة لكى تتساج ضد خيبة الأمل . ولا ريب أن تربية كهذه ، تجعل الفتاة حية نفورة . تلتجئ الى كنف الدراسة والمطالعة والى جانب ذلك يعين والدها سفيرا خارج فرنسا ويكل أمرها الى جدتها فتظل معها الى أن تعلن الحرب العالمية الأولى . ولما كانت ايزايل تحمل شهادة التمريض ، فانها تطلب أن تلتحق بأحد المستشفيات العسكرية وتجاب الى سؤالها فترحل الى حيث وظيفتها الجديدة ، أو بعبارة أدق تنتزعها الحرب من عزلتها وضجرتها . وتشاء الأقدار أن

العزيمة التى ألقت فى روعه أنه حتى لو رقد فى تلك الساعة على قضبان القطار ليدوسه لو استقلته لما منعها من تصميمها . وفى اليوم التالى طلبت هى نفسها الى فيليب فى لهجة جد حزينة أن يوافق على أن يطلقها ويدعها تعيش مع أهلها الى أن تستطيع الزواج من فرانسوا فيجيبها الى ماتبتغيه . وعلى أثر رحيلها يحس أول الأمر بأن حياته مليئة بالتعاسة والشقاء واليأس ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى أسرته ويجرفه تيار الحياة العملية من جهة ، ويشعر بسند أهله ومعوتهم اياه فى مصابه من جهة أخرى ويظل متأرجحا بين الحزن والمواساة والسلوان حتى تتزوج أوديل من فرانسوا فينقذف الى عقله الاعتدال والاتزان ، ولكن ذلك لم يدم طويلا اذ يلتقى فى احدى الحفلات بصديقه هيلين دى نيانج فتنبئه بأن أوديل لم تجد أى نوع من السعادة الى جانب زوجها الجديد الذى يجب السيطرة ولا يعرف الحنان، وتحاول أن تضع على عينيها نقابا من الدلال فيكشف أكاذيبها ويفضح ألاعيبها فيخيب أملها وتنتحر . واذ ذاك يصطدم فيليب بياس لاطاقة له باحتماله فيهوى مريضا ويظل يعانى آلاما مبرحة . وأخيرا يبرأ جسمه ولكن قلبه يبقى جريحا فيذهب الى قصر الأسرة فى الريف وهناك يعيش فريسة للأسف والذكريات التى جعل ينقب فيها عن الكلمات والاشارات التى حولت هذا الحب العظيم الى تلك القصة المحزنة وهنا يشتعل لهيب الحرب العالمية الأولى فتنتزعه من آلامه وتقذف به بين أهوالها ليدافع عن وطنه العزيز .

القسم الثانى - ايزايل

لا يكاد القسم الثانى من الرواية يتبدى حتى

تكون مديرة هذه المستشفى هي رينيه مارسينا .
وهي في نظر ايزابيل فتاة عليها مسحة من الجمال ،
حادة الذكاء ، معتزة بنفسها . وسرعان ما تتبين
مميزاتها فتعينها مساعدة لها . وعن طريقها تعلم أن
لديها محاسن تروق ، بل قد تكون موضع الاعجاب
لأنها سمعتها ذات يوم تقول للبارونة كوراشوان
« ان ايزابيل أحسن مرضاتي ، وليس فيها سوى
عيب واحد وهو أنها مفرطة في الجمال » . وكان
بين الجرحى ضابط يدعى جان دي شفيرني . وهو
يقاسم رينيه رأيها في هذا . ولما كان هو الآخر
جميلاً مرحاً من أسرة عريقة فانه يطلب يدها الى
أبويها فيقبلان ويتم الزواج . وبعد أربعة أيام يراً
جان ويعود الى جبهة القتال ولا تمضي على ذلك
بضعة أشهر حتى يقتل في معركة فيردان . واذذاك
تبكيه كثيراً ، ولكنها لما كانت قد تعودت على
الاستقلال فانها لا تريد بعد الهدنة أن تعود الى
أسرتها فتستأجر في باريس مسكناً مع رينيه مارسينا
التي صارت صديقتها وموضع اعجابها . ولما كانت
هذه الأخيرة تعمل في معهد باستور وتؤدي فيه
خدمات عظيمة فانها لاتجد عسراً في أن تاحقها بهذا
المعهد معها . وتحدثنا ايزابيل أن رينيه تصرح لها
بأنها لن تتزوج أبداً ، ولكنها تتبين من حديثها
معها عن ابن عمها فيليب مارسينا أنها تحبه . وبمناسبة
حديثها عنه تروي لها قصة زواجه من فتاة جميلة
وتطليقه إياها ثم انتحارها . وبهذا تلفي الى قلب
ايزابيل الرغبة في معرفته ، ولاتلبث هذه الأمنية
أن تتحقق على صورة طبيعية اذ يلتقون جميعاً
ذات مساء عند البارونة كوراشوان خالة فيليب .
وهنا نرى ايزابيل على غير عادتها ليست منظوية
على نفسها . وسرعان ما يبدأ الحديث بينها وبين
فيليب بلا كلفة . ومن هذا الحديث يتكشف كل

منهما عن الطباع الحقيقية فيتبين لهما تشابه التريبة .
كما يبدو من نقاشهما اختلاف في الذوق والميول
لاسيما فيما يتعلق بالأحاسيس الفنية التي لاتكاد
ايزابيل تملك منها شيئاً . وأياً ماكان فإن نوعاً من
الجادية ينشأ لديهما ثم يتحول الى صداقة فتدعو
ايزابيل فيليب ورينيه لتناول العشاء في منزل أبويها
ثم يدعوهما فيليب بدوره . وهكذا تقوى العلاقة
بينهم فيتزهدون معا ، ويذهبون الى دور التمثيل
وفي ذات مساء تلم برينيه وعكة خفيفة فلا تستطيع
الخروج معها ويخرجان وحدهما . وللدرة الأولى
يحدثها فيليب عن زواجه الأول فتتملى ايزابيل
اعجاباً بهذه الذكريات التي يحتفظ بها فيليب مفعمة
بالحنان لامرأة آلمته كثيراً ، اذ كان يتحدث عنها
كما يتحدث عن صبية صغيرة رقيقة فعلت كل ما في
استطاعتها ، بينما أن رينيه قد صورنها لايزابيل
« امرأة جد جميلة وجد خطيرة » .
وعلى أثر ذلك كنه يرتحل فيليب الى ايطاليا
لكي يحاول الاستشفاء من نزلة شعبية فيما يزعم ،
ولكنه على الأخص كان يريد الابتعاد عن رينيه لكي
يقطع الطريق على شائعات الأسرة التي كانت تذيع
أنها خطيبته . وعند عودته لاينبئ سوى ايزابيل
ثم يدعوها بعد وصوله منفردة الى العشاء . ولما تعلم
رينيه ذلك تفهم كل شيء ، ورغم آلامها المبرحة
تنزل بعيداً عن حياتها سرا وبلا أية شكوى بينما
أن الصداقة بين فيليب وايزابيل تستمر وتقوى
ثم تنشأ عندها رغبة عظيمة في أن تصوغ ذوقها على
ذوقه ، وينتهز هو هذه الفرصة فيحولها عن القراءة
السهلة الخاطفة الى مطالعة استنادال ، وبالأزك ،
وميريميه ، وبروست . واذ ذاك تدرك ايزابيل نوع
الحب الذي يكنه لها فيليب فتكتب ما يلي : « ان
فيليب يعرف في أعماق قلبه أنني امرأة ودیعة حية

وان كنت لا ألفت الأنظار كثيرا . ويبدو أنه يتطلب منى أمانة دقيقة ولو أنى لست زوجته ولا خليلته، وذلك أنى كنت أريد الخروج للنزهة يوما مع بعض الأصدقاء كما كنت معتادة على هذا أثناء الحرب فأنبأته بما اعتزمت فمرت على وجهه سحابة من الحزن فعدلت عن هذه النزهة . والآن هو يحدثنى تليفونيا فى كل صباح حوالى الساعة التاسعة . وعندما كان يجد أنى ذهبت الى المعهد كنت ألقيه فى المساء مضطربا الى حد أن انتهيت الى ترك المعهد لكى يكون واثقا من أنه سيجدنى عندما يحدثنى . وهكذا استولى على استيلاء تاما »

ظلت الحال على هذا المنوال بضعة أشهر ثم ارتحل فيليب بعد ذلك الى قصر الأسرة حيث بقى أسبوعين وجعل يكتب اليها من هناك . وقبل عودته يرسل اليها قصة حياته مع أوديل ، وهى التى تألف منها القسم الأول من هذه الرواية ، وقد قصد بهذا أن يصور نفسه كما كان بالضبط حتى يجنب ايزابيل كل مباغته متعبة ، وقد استكشفت هذه الأخيرة فى تلك القصة أن فيليب قلق غيور ، بل انه ماجن أحيانا فى بعض الأزمات ، ولكن هذه الصورة التى رسمها لها عن نفسه لم تزعجها لأنها لم يكن فى نيتها أن تخونه بل انها - لكى يكون سعيدا - تقبل أن تدخل فى حياته نساء أخريات اذا كان ذلك يرضيه فلم يكن يشغلها سوى شاغل واحد وهو أن يكون فيها شىء لا يروق فيليب ، ومن ثم فانها تسأله بكل بساطة عما اذا كان فيها جانب لا يعجبه فيجيبها بصراحة فى تلك الرسالة التى كتب فيها : « ما أحبه فيك هو .. وما لا أحبه فيك هو .. » وهى رسالة حقيقية توجد مخطوطتها الى الآن . وعندما يعود فيليب من رحلته يصممان على الزواج ثم ينفذه .

تمر الأشهر الثلاثة الأول فى هدوء تام

ويقضيانها فى قصر الأسرة ، وتكون ايزابيل على أتم وفاق مع والدته فيليب لأنها يشتركان فى كثير من الذوق ، ويشعران بنفس الانزعاج الحنون القلق على فيليب الذى ترى أمه أنه ليس هو فيليب الذى ربه . وهى تعزو السبب فى هذا التحول الى ذلك الأثر السيء العميق الذى تركته أوديل فى نفسه فيليب الذى كان فيما مضى نشيطا قويا مستقرا ، قد صار عصيبا قلما عقدا . ولكنها على يقين من أنه سيكون سعيدا مع ايزابيل . وفى فصل الخريف يعودان الى باريس ويستقران فيها . واذا ذاك يحتم فيليب على ايزابيل أن تترك مسكنها وأثاثه لأنها لا يروقانه فتتزل عند ارادته كما ستفعل ذلك دائما فى كل شىء . ولكن الخضوع المبالغى لا ينعش الحب دائما ومن ثم فان فيليب عندما تتحقق له كل رغباته ويصبح كثير الهدوء يستولى عليه الضجر ولكنه سرعان ما يلوم نفسه ويشعر بأنه سيهوى فى نفس الأخطاء ويحس بأنه يطلب من زوجته مالا تطيق ، اذ يتمنى ألا تشبه « فارسة أحلامه » فحسب بل يطلب اليها أن تشبه أوديل فى الذوق النقى ، وفى القفز من حالة الى أخرى وفى التدلل الغامض الذى يحدث الاضطراب أين تحل . ومما لا ريب فيه أن ايزابيل ليس لديها أى واحد من هذه المعالم ، وأن فيليب يعرف ذلك جيدا ، لأنه دائما متيقظ الوعى ، وهو يدرك أتم الادراك ميزات زوجته ولكن صحبتها تضجره . بينما أن أوديل التى كان يعلم نزقا وتفاهتها لم تكن تضايقه قط . ولما لم يكن من طباع آل مارسينا شرح العواطف فان فيليب يظل صامتا ، والضيق يزيد عنده شيئا فشيئا حتى يصل الى درجة ملحوظة .

كان فيليب يرغب فى أن تعرف زوجته أصدقاءه العديدين ، وتوافق ايزابيل على ذلك ولكنها

تدهش حين تجده مرتبطا بالصدقة مع عدة شابات في المنتديات التي يختلف اليها ، وتلاحظ أن صحبتهن تمنحه مراحا وانتعاشا لا يوجدان لديه عندما يكون معها فتتألم حين ترى أنه يعلق اهتماما عظيما الى هذا الحد على هذه الكائنات - وإن كانت محبة الى النفوس - هي كائنات عادية تافهة ولا تتخرج من أن تصارحه بذلك فيجيبها كما كانت أوديل تجاوبه بقوله : « انهن يسليهن » ومهما يكن من شيء فإن ايزابيل تقاوم الغيرة التي تجتاح نفسها ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تسأله حين يخرج منفردا . وكثيرا ما يحدث ذلك فتشأ عنه استشاطه فيليب غضبا ، كما سجل ذلك في يومياته السرية التي وجدتها ايزابيل بعد وفاته . غير أنه كان يخطيء نفسه وبوساطة وعيه العادى كان يعترف أمام ضميره أن نفسيته الآن غير نفسيته السابقة طالما أنها لا تزال مطبوعة بطابع أوديل . بينما أن ذوقه الحقيقى وعقله القلق اللذين ورثهما عن أسرة مارسينا كانا يتجسدان فى ايزابيل ، بل ان ما يلومها عليه اليوم هو ما كان بالضبط خلقه الخاص فى الزمن الذى كانت أوديل تؤلم فيه كما يؤلم حاليا ايزابيل . ولا ريب أن كل هذا هو نتيجة لاستحالة تحقيق مساواة الأهواء .

كانت مناقشتها العنيفة الأولى جد شاقة على نفس ايزابيل . ومنشؤها أنها ظفرت من زوجها بأن يمنحها صحبتته فى رحلة غرامية الى سويسرا أسبوعا بمناسبة عيد الميلاد ، وكانت تسمى نفسها فيها بسعادة عظيمة ، ولكن قبل رحيلها ببضعة أيام يلتقى فيليب فى أحد المنتديات التي يتردد عليها بزوجين كان قد عرفهما فى مراكش وهما جاك فيلييه وزوجته سولانج وكانت هذه الأخيرة تبدو عليها السعادة لمراى فيليب . ومن ثم فانها

لا تكاد تسمع برحلة الزوجين حتى تعرض على فيليب مرافقتهم هى وزوجها . وهنا يوافق فيليب بلا أية صعوبة ، بل هو يشعر باسترواح وسرور قلبين . وعلى أثر عودتهما الى المنزل تلوم ايزابيل زوجها على افساده رحلتها ، بل هى تريد ألا ترافقهم فيها واذا ذلك يحتج فيليب ويقول لها فى عصبية وعنف : « حسبى هذا منك فانى أشعر بأئك غيورة وقلقة الى حد أن أصبحت لا أجرؤ على عمل أية اشارة أو على النطق بأية كلمة .. » وانى يؤكد لك أنه لاشيء يقصر الحياة مثل التنغيص .. وهنا لا يستطيع أن تمنع نفسها من أن تقول : « ان الذى يقصر الحياة هو اقتسامها مع الجميع »

غير أنها لا تلبث أن تعود الى الهدوء وتلوم نفسها على الغيرة ثم تدعن وتصمم على السفر معهم ، ولكن هذه الرحلة تبقى بالنسبة اليها تذكارات عذاب مرير ، اذ أنهم لا يكادون يغادرون باريس حتى تتبين أن سولانج الجميلة الذكية اللعوب المغرية الواثقة من نفسها تأسر فيليب بمميزاتها الفائقة . ولما كانت رياضية بارعة فانها تتزحلق مع فيليب على الجليد بمهارة . بينما أن ايزابيل تظل بين يدى المدرب على التزحلق بعيدة عن ذلك السرور وفوق ذلك فان سولانج فى الحديث العام تحرص على أن تبدى آراء دائما مضادة لآراء ايزابيل . لأنها تعلن دائما أنها تحب الأحداث المبالغتة الخطرة التي لا يتوقعها أحد . ومن عباراتها مثلا : « ان المرأة تستطيع أن تحيا حياة جميع الرجال الذين تحبهم ، أى أنها مع الضابط تعيش فى الحرب ، ومع البحار تعيش فى المحيط ومع السياسى فى الدسائس ، ومع الكاتب فى لذة الابداع .. بل تستطيع أن يكون لديها انفعالات

عشرة وجودات مختلفة دون أى أثر للضراليومي
من أن تعيش فى ذلك » . واذ ذاك تهتف ايزايل
قائلة . « آية فظاعة ان هذا معناه أنها تحب عشرة
رجال متباينين » .

غير أنها تشعر فى ذلك كله أن فيليب يريد دائما
أن يروق سولانج ، ولم تكد هذه الرحلة تنتهى
حتى ارتفعت الكلفة بين فيليب وسولانج ، وما
كان يزيد فى آلام ايزايل هى اللهجة الأليفة
العطوفة التى يتحدثان بها أو الطريقة التى يلبسها
بها معطفها والتى هى مداعبة أكثر منها أى شىء
آخر .

وبعد العودة الى باريس تقفها المصادفة المحضة
على محادثة تليفونية تعلم منها أن زوجها وسولانج
لا يلتقيان سرا فتطمئن ، ولكن ذلك لا يدوم طويلا
اذ لا يلبث فيليب أن يغير عاداته فيخرج بدونها
ولا يذهب الى مكتبه بعد الظهر والى جانب ذلك
تعلم من عدة مصادر أنهم يرونه فى الخسارج مع
سولانج . وكذلك تلاحظ أثر فيليب المباشر فى
مطالعات سولانج فتألم ألما مزدوجا لأنها تشعر
بالغيرة تقضم قلبها من جهة ولأنها تدرك أنه غير
أمين حتى لذكريات أوديل نفسها من جهة أخرى .
وفى هذه الأثناء نفسها تضطر فيليب أشغاله الى
السفر الى أمريكا ولا يستطيع ايزايل أن ترافقه
لأنها حامل . ولكن رسائله اليها ابان فرائهما كانت
مشحونة بالركة والحنان مما يشف عن أنه لا يزال
يحبها . وفى أثناء غيبة فيليب تلتقى ميزا وزوجها
فتخلق الفرص للتحدث معها عن أوديل وتحاول
أن تستكشف الوسائل التى عرفت بها أوديل كيف
تروق فيليب لكى تجتهد فى أن تسلكها . وعندما
يعود فيليب من سفره مرحا منتعشا يجد ايزايل
تنتظره بفستان أبيض فى منزل ملء بالزهور

على نحو ما دانت تفعل أوديل . وهكذا مرت الأيام الأولى
بلا ظلال لاسيما ان سولانج قد عادت الى باريس .
ولكن سرعان ما يقلق فيليب حين يرى ان ايزايل
قد تغيرت وعلى الأخص صارت أكثر وثوق بنفسها
وتشاء المصادفة هنا أيضا أن يفاجئ مكالمة تليفونية
تقذف به فى مشغولية غيورة . وحين ذاك تفهم
ايزايل أنها اذا استخدمت الدلال وأقلقتة - كما
كانت أوديل تقلقه - فانها ستحتفظ به . ولكنها
لما كانت مفرطة فى حبه وفى كرم الخلق فانها تتخلى
عن هذا السلاح وتعيد الثقة الى قاب فيليب الذى
حين يطمئن يعود الى حياته العادية . وفى ذلك الحين
تعود سولانج الى باريس ، ولكن قلبها يكون قد
شغل بهوى جديد فى غرام روائى يدعى روبرايتين
وقد أسرها الى حد أنساها فيليب فتركته يهوى .
وطفت ايزايل تراه يتألم سرا دون أن يشكو .
ولكنه مع الأيام جعل يهدأ شيئا فشيئا ثم ينقطع
عن حياة المنتديات التى كان يحبها كثيرا . وأخيرا
ينطق بهذه العبارات التى طالما تمنى أن تسمعها
فى أحلامها وهى أنها الآن « الملكة والفارسة » وأنه
لم يعد يتمنى سوى صحبتها ووجود كتاب وثنائه
فى منزله . وفى تلك السنة يرتحلان مبكرين الى
قصر الأسرة ، واذ ذاك تكون ايزايل فى أتم أنواع
السعادة ولكن لا الى وقت طويل ، لأن فيليب فى
أحدى نزهاتهما يصاب ببرد شديد لا يلبث أن يتحول
الى التهاب رئوى ثم يتوفى بعد بضعة أيام ويترك
فى أشد ألوان اليأس المرأتين اللتين أخلصتا فى
حبهما اياه وهما والدته وايزايل .

نماذج من رواية « أجواء »

١ - كيف يصور فيليب ، أوديل حين عرفها
فى فلورنسا .
انتى أشعر أتم الشعور بأننى عاجز عن وصف

ان أسوأ أنواع خيبة الأمل التى تحدثها لدينا المرأة هى الناشئة عن وجود خصم فى الحب حقا كنت أصير غيورا لو أننى رأيت على مقربة من أوديل رجلا جديرا بالملاحظة ، ولكن ذلك لم يكن ليدهشنى ، غير أنى أراها محوطة بشبان قد لا يكونون أكثر عادية من غيرهم . ولكن الذى لاشك فيه أنهم غير خليقين بها . وعلى أية حال كنت أقول لها :

— يا أوديل لماذا أنت لعوب هكذا ؟ أنى أفهم أن امرأة دمية تريد أن تجرب سلطانها ، ولكن بالنسبة اليك هذه لعبة تربحين فيها دائما ، وتلك قسوة يا عزيزتى وغير جديرة بالثناء .. لاسيما أن اختياراتك غريبة ، فمثلا أنت ترين فى أكثر الأوقات جان بيرنيه ، فما عسى أن يروقك فيه ؟ انه دميم وفض ..

— انه يسلىنى .

— كيف يستطيع أن يسليك ؟ انك دقيقة وذات ذوق ومزاجاته من النوع الذى لم أسع مثله منذ أيام التجنيد ولن أجروء على أن أنطلق بواحد منها أمامك .

— انك بلاشك محق فهو دميم ، وقد يكون عاميا ولو أننى لا أعتقد ذلك ، ولكنى أحب أن أراه .

— على أى حال أنت لا تحبينه أليس كذلك ؟

— آه ، كلا أنت مجنون ؟ انى لا أريد حتى أن يلمسنى لأنه يذكرنى بلمس قوقعة قدرة .

— يا عزيزتى أنت قد لا تحبينه ولكنه يحبك ،

السعادة التى تعيدها الى نفسى ذكريات أوديل ، وكنت أسائل نفسى : لماذا أحس بشعور الكمال الى هذا الحد ؟ يقينا انى لا أعتقد أن ماكانت أوديل تقوله كان جديرا بالملاحظة ، ولكنها كانت تملك ماكان يعوز كل أسرة مارسينا ، وهو تذوق الحياة وفى الحق أننا نجب من نألفه من الكائنات لأنهم يفرزون الخلاصات الخفية التى تعوزنا فى احداث مركب كيميائى ثابت من طبيعتنا . واذا كنت حقا لم أعرف من النساء أجمل من أوديل ، فانتى عرفت أسطع وأذكى منها ولكن أية واحدة منهن لم تعرف كيف تضع مثلها العالم المحس فى متناولى . ولما كنت — بسبب اسرافى فى القسواء وفى تأملاتى المعترلة — قد ابتعدت عن الأشجار والزهور وعن رائحة الأرض وجمال السماء ، وطلاقة الهواء ، فانتى كنت أجد هذه الأشياء فى كل صباح مجتمعة بفضل أوديل ، وموضوعة فى باقة عند قدمى .. آه ، كم لا أزال أحب الى اليوم أوديل انتى عرفت فى تلك الأسابيع الفلورانسىة أنها كانت جميلة الى حد أنه كان يحدث لى أن أشك فى حقيقتها الواقعية . فكنت أدير وجهى عنها وأقول لها « انى أريد أن أحاول البقاء خمس دقائق دون أن أنظر اليك » ولكنى لم أستطع قط أن أقاوم أكثر من ثلاثين ثانية والحق أنه كان فى كل ماتقول نوع من الشعر الخارق للعادة . ومع أنها كانت مرحة فانه كان يمر فى عباراتها من وقت الى آخر شىء يشبه نبرات الكمان الجدية الحزينة أو لهجة كثيبة تملأ الجو غالبا بتهديد غامض ومأساوى . وكانت تعيد دائما جملة لا أدرى فى أية رواية من روايات الأطفال قرأتها هى : « تحت تأثير مارس » (أى اله الحرب) أيتها الفتاة ذات الشعر الذهبى التى قضى عليها القدر ، احذرى ..

وهذا واضح ، فأنت بهذا تشقين رجلين . أنا وهو
فما الفائدة من هذا ؟

— انك تعتقد أن جميع الناس مغرمون بى
فأنا لست جميلة الى هذا الحد ..

كانت تقول ذلك بابتسامة دلال ساحرة
الى حد جعلنى ، أبتسم أنا أيضا ثم أقبلها وأقول
لها :

— اذن ياعزيزتى أنت سترينه أقل من ذى
قبل ؟

فاتخذت ملامح مغلقة قائلا :

— اننى لم أقل لك ذلك قط .

— انك لم تقولى لى ذلك ، ولكنى أنا أطلبه
منك وهو يسرنى .. وماذا عسى أن يضيرك ذلك ،
لأسيما وأنت نفسك تقولين انك لا تحبينه .

فعند ذلك بدا عليها أنها مأخوذة ، وكأنها جعلت
تسائل نفسها ثم أجابتنى بابتسامة حائرة تقول :

— لا أدرى ماذا أقول يا فيليب أظن أنى لا
أستطيع أن أفعل ذلك .. لأنه يسلىنى

مسكينة أوديل . انها — وهى تنطق بهذه
الكلمات — كانت تبدو عليها ملامح طفولة بريئة ،
وحين ذاك برهنت لها بمنطقى العايب القاسى على
أنه من الميسور «أن تفعل غير ذلك » وقلت لها :

— ان الذى يضيعك هو أنك تقللين نفسك
على ماهى عليه كما لو كنا تتلقى أخلاقنا مصنوعة
ومعدة ولكن من الممكن أن نكون أخلاقنا وأن نعيد
صنعها على نسق آخر ..

— اذا كان الأمر كذلك فأعد صنع أخلاقك ؛
— اننى على أتم استعداد لمحاولة ذلك ، ولكن
أعينينى بالمحاولة من جانبك .

— كلا فأنا قلت لك فيما مضى كثيرا اننى لا
أستطيع بل انى ليس لى أدنى رغبة فى هذه المحاولة.
عندما أفكر فى ذلك الوقت البعيد أسائل نفسى
عما اذا لم تكن غريزة عميقة هى التى كانت تملى
عليها تلك الخطة . وعن أنها لو كانت قد تغيرت
كما طلبت اليها ، هل كنت سأحبها بهذا القدر ؟ وهل
كنت سأحتمل الشواء الدائم مع هذه الشابة
النزقة لو أن تلك المناقشات كانت قد أبعدت عنا
الضجر نهائيا ؟ على أن أوديل لم تكن شريرة ، بل
حينما كانت ترانى تعسا كان يخيل اليها أنها مستعدة
لعمل كل شىء فى سبيل شفائى ، ولكن كبرياءها
وضعفها كانا أقوى من خيريتها فكانت حياتها تبقى
كما هى .

ومع الزمن تعلمت كيف أتبين « ملامح
الاغواء » على وجهها وهى : مرح أعظم من مرحها
العادى ، وعينان أشد لمعانا ، ووجه أكثر جمالا
ونشاط يهزم خمولها العادى ، وهكذا حين كان
رجل ما يروقها كنت أعرف ذلك قبلها .. وكان هذا
فظيحا .

٣ — الفراق بين فيليب وأوديل

فى اليوم التالى طلبت هى نفسها الى فى نبرات
جد حزينه أن أوافق على أن أطلقها وأدعها تعيش
مع أهلها الى أن تستطيع الزواج بفرانسوا ، وكان
اذ ذاك فى صالونها الصغير قبل العشاء . لم أقاوم
الا قليلا ، لأنى كنت أعرف ذلك منذ زمن بعيد أى
أن الأمر يجب أن ينتهى على هذا النحو ، بل ان

— انك مجنونة يا عزيزتى ، فأنا لن أتزوج أبدا .

— بلى ، بلى ينبغي أن تفعل .. وحين تفكر فى ، ليكن ذلك بلا افراط فى الحق . لقد كنت أحبك كثيرا يا فيليب وهذا هو ماتستحقه . حقا انى لم أظن قط فى الشاء لأنى حية ولأنى لأحب ذلك ، ولكنى طالما رأيتك تفعل أشياء لم يفعلها أى رجل آخر يكون فى موقفك فكنت أقول فى نفسى : حسن جدا ، بل انى سأقول لك شيئا قد يسرك وهو أنك فى كثير من النواحي تروقنى أكثر من فرانسوا ، غاية ما فى الأمر .. أننى لا يمكننى الاستغناء عنه اذ أننى بعد أن أمضيت معه بضع ساعات كان يخيل انى أننى صرت أشد قوة وأدخل فى باب الحياة . قد لا يكون هذا حقا . ومن الممكن أننى كنت سأصير أكثر .. كان هذا هو الذى كان ولم تنتظ الأمور على مايرام . ليس هذا ذنبك يا فيليب ولا ..

٤ — كيف صارت ايزابيل ملكة أحلام فيليب
عشرت ايزابيل ذات يوم فى مكتبة قصر الأسرة على ذلك الكتاب الذى طالما دفع فيليب الى أن يحلم الفقرات التى أثرت فيه وهى : « اقتصرح طلاب الليسيه أن ينتخبوا طالبة شابة لتكون ملكة لهم .. وكانت فتاة جميلة بشكل ملحوظ مرنة رشيقة ماهرة .. وعلى أثر اختيارها حنوا رؤوسهم أمامها وأقسموا اليمين على طاعة قوانينها . واذا ذلك تبدأ المحادثة على النحو التالى فتقول ايزابيل :

— انك بقيت طول حياتك كهؤلاء الغلمان يا فيليب ولكن «الملكة» قد تغيرت كثيرا ..

الخطبة التى سلكتها أثناء مرور فرانسوا بباريس قد دفعتنى الى اعتزام أنى لا أراها بعد ذلك . ومع هذا فان الشعور الذى اقتحم عقلى فى هذه اللحظة كان حقيرا لأنى كنت أفكر أن أى أحد من أسرة مارسينا قد سبق له الطلاق ، وأنى سأحس بالمهانة فى اليوم التالى عندما أروى هذه الفاجعة لأسرتى ثم أحسست بالخجل من وجود هذه الفكرة لدى الى حد أن صمتت فورا على ألا أضع فى اعتبارى سوى مصلحة أوديل . غير أن محادثتنا لم تلبث أن ارتفعت الى مستوى أخلاقى عظيم وكما كان يحدث بيننا دائما عندما كنا مخلصين ولم تلبث هذه المحادثة أن اشتملت على شىء من المحبة والحنان . وهنا دعينا الى العشاء فجلسنا كل منا أمام الآخر ، ولكننا لم نكد نتحدث بسبب الخدم ولقد كنت ساعتئذ أنظر الى الأوانى والأكواب والأشياء التى كانت تحمل كلها علامة ذوق أوديل ، وكنت أنظر اليها هى ذاتها وأفكر فى أنها قد تكون هذه هى المرة الأخيرة التى يوجد فيها هذا الوجه الذى استطاع أن يحتوى على هذا القدر من السعادة وكانت هى أيضا تنظر الى وعيناها فى . وكانت شاحبة غارقة فى التفكير . ومن الممكن أنها كانت مثلى تريد أن تنقش الى وقت طويل فى ذاكرتها تلك الملامح التى لن تراها بعد . الآن بلا شك . وبعد العشاء لحقت بها فى صالونها وتحدثنا طويلا وفى جد ، عما ستكونه حياة كل منا . وقد قدمت الى بعض النصائح ثم قالت لى :

— ينبغي أن تتزوج وستكون زوجا كاملا لسيدة أخرى . اننى على يقين من ذلك .. لأنى لست مخلوقة لك ولكن لا تتزوج ميرا فذلك سيحزننى لأنها امرأة خبيثة فمثلا الشخصية التى تلائمك هى ابنة عمك رينيه .

— والآن يافيليب من هى الملكة ؟

— هى أنت .

— أنا ؟ لكنى قد هويت منذ زمن طويل .

— نعم من الممكن أن تكونى قد هويت
لأنك كنت غيورة محدودة الأفق ظالمة ، ولكنك منذ
ثلاثة أشهر صرت جد شجاعة وجد بسيطة الى حد حملنى
على أن أرد عليك تاجك . انك لاتستطيعين أن تتخلى
كم أنت تغيرت يا ايزابيل فانت لم تعودى نفس
المرأة .

— انتى أعرف ذلك يا حبيبى ، وفى الحقيقة أن
المرأة المحبة ليس لها أنبنة أية شخصية مع حبيبها ،
نعم انها تزعم أن لها شخصية وتحاول أن تعتقد
ذلك ، ولكن هذا غير صحيح ، وانما هى تجهد
أن تفهم المرأة التى يتمنى حبيبها أن يجدها فيها
لتكون هذه المرأة ذاتها .. غير أن هذا معك
يافيليب عسير جدا لأن أحدا لايعرف جيدا ماتتمناه
فانت فى حاجة الى أمانة وحنان ، ولكنك فى حاجة
أيضا الى تدلل وقلق . واذن فما الذى ينبغى عمله ؟
أما أنا فقد اخترت الأمانة لأنها هى الأقرب الى
طبيعتى ، ولكنى أظن أنك ستكون أيضا الى وقت
طويل فى حاجة الى أخرى تكون الى جانبك
أقل ثباتا ، وأكثر زبكية مما لا أستطيع أن أكونه
ومن ثم فان الانتصار العظيم الذى أحرزته ضد
نفسى هو أنتى أقبل هذه الأخرى ، بل أقبلها باذعان
وسرور . ولقد فهمت منذ سنة أن هذا هو أهم
شئ . وسر ذلك أن من يجب حقا ، لاينبغى له أن
يجعل أهمية مغالية لأعمال الأشخاص الذين يحبهم
نحن فى حاجة اليهم لأنهم هم وحدهم الذين
يجعلوننا نعيش فى جو معين لانستطيع أن نستغنى
عنه . وصديقتك هيلين محقة حين تسمى هذا

— نعم تغيرت الملكة كثيرا ففى الحقيقة أنى لم

أنت فاهمة ؟

— من كانت الملكة بالنسبة اليك يافيليب ؟

— عدة نساء يا عزيزتى ، كانت فى المبدأ
دينيز أوبرى قليلا ، ولكنها كانت ملكة ناقصة .

— وبعد دينيز أوبرى من كانت ملكة ؟

— أوديل

— أهى التى كانت أقربهن الى ملكة أحلامك .

— نعم لأنها كانت جميلة الى حد بعيد .

— وبعد أوديل كانت هيلين دى تيانج أليس

كذلك ؟

— قد تكون هى أيضا قليلا ، ولكن بالتأكيد

أنت يا ايزابيل .

— أنا أيضا ؟ أهذا حق ؟ واثنان وقت طويل

— طويل جدا

— ثم كانت سولانج .

— نعم كانت سولانج

— وهل سولانج لاتزال هى الملكة يا فيليب ؟

— كلا ولكنى على الرغم من كل شئ لاأحتفظ

بتذكارة سىء من سولانج اذ أنها كان لديها شئ عى

وقوى الى حد بعيد ، وكنت أشعر الى جانبها

أنى أكثر شبابا ، وكان ذلك شهيا .

— ينبغى أن تراها يافيليب .

— نعم سأراها عندما أكون قد شفيت أكثر

من الوقت الراهن ولكنها لن تكون الملكة أبدا ،

فذلك قد انتهى .

أجواء. مادام الأمر كذلك فحسبنا أن نحتفظ بهم
أما الباقي فما أهميته ؟ ان هذه الحياة جد قصيرة
وجد عسيرة .. فهل يكون لدى من الشجاعة
يا فيليب أن أساومك على هذه الدقائق من السعادة
التي يمكن أن تعطيك اياها كل هذه النساء كلا ،
لقد تقدمت كثيرا ولم أصبح غيورة ، ولم أعد أتألم
انك ستقول لى انى أحسن من ذى قبل وانى أظن

أن هذا حق .. وهل تظن أنه من الممكن يا حبيبي
أن كائنين يمكن أن يكونا متحدين على صورة كاملة
دون أن تمر بينهما أية سحابة ؟

وهنا يجينى فيليب وهو ينتصب واقفا :

— على أية حال قد صار هذا ممكنا أثناء هذه
الساعة .